# كم كبدت قناة السويس مصر

للأستاذ محمد عبد القادر حمزة

حين استطاعت الثورة أن تجلى قوات الاحتلال عن مصر ، وأن تزيل هذه السوأة عن أرضها كان واجبا ان تزيل سوأة أخرى ، هى هذه الشركة التى كانت مصرية اسما، أما وضعها الفعلى فكانت فيه أشبه ما تكون بدولة فى دولة • كانت الشركة العالمية لقناة السويس البحرية ، وهو الاسم الذى انتحلته لنفسها مع أنها شركة مساهمة مصرية صدر بها الفرمان المصرى فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ ، أقول كانت هذه الشركة من العوامل الهامة التى سببت نكبة مصر بالتدخل الاجنبى الذى انتهى الى احتلالها فى سنة ١٨٨٢ ، ومنذ بدء حفر القناة على يد هذه الشركة بدأ هذا التدخل يعرف طريقه الى هذه البلاد بشكل صارخ وسافر وشديد ، ثم تضاعفت مظاهره حتى أصبحت اشرافا على الشئون الداخلية المصرية، ثم وصاية أجنبية، ثم احتلالا عسكريا فى النهاية ، ولذلك حين زال الاثر أو زالت النتيجة كان واجبا ان يزول آخر سبب من أسباب هذا الاحتلال وهو هذه الشركة •

ولعل من المفيد هنا ان يعرف المصريون جانبا طريفا من الاسباب التى أدت الى نشوء العلاقة بين أسرة محمد على وبين عائلة ديلسيبس ـ وأنا هنا أنقل عن كتاب كتبه مؤلف فرنسى

عن حياة ديلسيبس وعن أعماله ـ وقد قال هذا المؤلف ما يلي:

« كان والد فرديناند ديليسبس « واسمه ماتيو ديليسبس» من رجال السياسة الفرنسية ، كما عينته حكومته فى قنصليتها فى القاهرة سنة ١٨٠٢ ، وكان محمد على يومئذ ضابطا غير معروف فى الجيش التركى الموجود هنا فى ذلك الوقت ، ولسبب ما دعاه هذا القنصل ذات يوم الى مأدبة أقيمت فى دار القنصلية الفرنسية ، وفى صباح اليوم التالى لهذه المأدبة ظهر أن احد الضيوف الذين حضروها سرق بعض الشوكات والملاعق الفضية ، واتجهت الشبهة الى ذلك الضابط الالبانى أى الى محمد على ، لا لسبب سوى أنه كان أحقر المدعوين منظرا وهذا هو نفس تعبير المؤلف الفرنسى ـ ثم لأن بعضهم زعم أن سراويله الطويلة الواسعة كانت تصلح لاخفاء المسروقات، وكاد العار يلتصق به لولا البحث الذى قام به القنصل الفرنسى والذى ترتب عليه استبعاد اسمه كمشتبه فيه ، وكانت نتيجة هذه الشبهة أن زار القنصل ، أى والد فرديناند ديليسبس ، الضابط الالبانى ـ أى محمد على ـ وقدم له احترامه واعتبر الحادث منتهيا عند ذلك الحد . »

هذا هو أصل المعرفة التى نشأت ثم توطدت بعد ذلك بين الاسرتين ، وخاصة بين سعيد وبين فرديناند ديليسبس ، فلما علم الاخير ان الأول أصبح واليا على مصر أسرع اليه ، وانتهز فرصة خروجه معه فى رحلة الى الصحراء ، فصارحه بمشروع شركة القناة وأقنعه به . ولا شك فى أن هذا الامتياز الذى حصل عليه فرديناند ديليسبس كان عملا بارعا من أعمال الخداع التى تناهت فى الخبث من جانب المهندس الفرنسى وتناهت فى البلاهة والجهل من جانب سعيد التركى ، وإن الاخير وقع امتياز الشركة والقناة دون أن يراه ، واذا كان المقام

لا يتسع لايراد بنود هذا الامتياز وبيان ما فيها من أدلة على هذا التناقض الكبير بين الشخصيتين ، مما أدى الى وقوع غبن على مصر لا مثيل له فى تاريخها ، أقول اذا كان المقام لا يتسع لشرح بنود هذا الامتياز ، فلا يسعنا ان نغفل شرط السخرة الذى حاول ديليسبس بما أوتى من دهاء كبير أن يجعله سرا لا يذاع، أخفاه ونجح فى اخفائه، مع أنه وضعه فى ذيل الامتياز حين عدل فى سنة ١٨٥٦ وظل لا يعرفه أحد حتى أثير فى سنة ١٨٦٣ وحصل من الغائه على تعويض يزيد على ٣٨ مليون فرنك ذهبا . ففى ٢٠ يوليو سنة ١٨٥٦ أضاف ديليسبس الى امتيازه النص التالى :

« تقدم الحكومة المصرية العمال اللازمين لحفر الترعة وذلك عند طلب مهندسى الشركة طبقا لحاجة العمل » .

وبناء على هذا الشرط الذى لم يعرفه أحد كان على حكومة سعيد ان تقدم من ٢٠ الى ٢٥ ألف عامل باستمرار ،وأن تستبدل بهم غيرهم فى فترة كانت تتراوح بين شهر وثلاثة أشهر .وكان معنى هذا أن عشرين الفا يعملون فى الحفر ، وعشرين ألفا ينتزعون من القرى المصرية ويتأهبون للحلول محلهم ،وعشرين ألفا قضوا نوبتهم وهم عائدون أو على أهبة العودة الى أراضيهم .

ولنسمع الآن كيف يصف دبلوماسى أمريكى هو المستر فارمان قنصل بلاده فى القاهرة ، ومؤلف كتاب « كيف غدر بمصر » أقول لنسمع كيف يصف هذا المؤلف حالة العشرين ألفا التى كانت تعمل بالفعل : قال مستر فارمان ان هؤلاء العمال «كانوا يسامون شر أنواع القسوة حتى أنهم كانوا يموتون كالذباب » ويعقب صاحب الكتاب « اسماعيل المفترى عليه » على هذه الحقيقة المؤلمة فيقول « ليست النكبة فى ان السخرة كانت تقضى على الدوام ستين ألف عامل فى مصر عن الاعمال الجالبة للرزق

فحسب ، بل فى كونها استنفدت أيضا قوى البلاد العاملة . وفى الحقيقة ـ كما يقول هذا المؤلف ـ أن الذين كانوا ينجون من الموت ويعودون الى مزارعهم كانوا يظلون عدة أسابيع لا يستطيعون القيام فيها بأى عمل ، لما أنتابهم من ضعف، ذلك لأن شركة القناة استنفدت كل ذرة من النشاط فيهم » .

ومرت الايام وافتتحت القناة فى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، وبدأت سنوات الامتياز التسع والتسعون، وأنفق اسماعيل على حفلات افتتاح القناة مليونا ونصف مليون من الجنيهات، ويقول اللورد ملنر فى كتابه عن مصر أنها ـ أى مصر ـ كانت حتى ذلك الوقت قد أنفقت على القناة ستة عشر مليونا من الجنيهات .

وفى أواخر شهر نوفمبر سنة ١٨٧٥ باع اسماعيل ما كانت تملكه مصر من أسهم هذه الشركة وقدره ١٧٦٫٦٠٢ سهما بمبلغ يقل قليلا عن أربعة ملايين من الجنيهات الانجليزية . وكان لمصر فوق هذا حصة فى الارباح تبلغ ١٥٪ من هذه الارباح بيعت فى سنة ١٨٨٠ بمبلغ ثمانمائة ألف جنيه . ولكى ندرك مبلغ الغبن الذى أنزله بمصر اسماعيل فى الصفقة الاولى وتوفيق فى الصفقة الثانية، نذكر أن الخزانة البريطانية اقتنصت حتى سنة ١٩٢٩ من أرباح أسهمها ربحا بلغ ٣٨٥ مليون جنيه ، أما حصة الارباح التى باعها توفيق أو اللجنة الثنائية الاجنبية ، فقد بلغت فى سنة ١٩٣٢ وحدها مليونا وعشرين ألف جنيه .

ثم كرت الايام كرة وهبت مصر بزعامة احمد عرابى وزملائه الوطنيين الاحرار ، هبت تدافع عن استقلالها أمام عدوان الانجليز فى شهر يوليو سنة ١٨٨٢ وهزمتهم فى موقعة كفر الدوار المعروفة ، فاضطروا الى التحول الى قناة السويس، وهنا يبرز أسوأ دور مثله ديليسبس على مسرح الخديعة لمصر

التى لولاها لما ذكر له اسم أبدا ، فانه حالما علم ان عرابى يفكر فى هدم القناة حتى لا يتسرب منها الاسطول البريطانى ، بعث اليه ببرقية أكد فيها ان الانجليز يستحيل ان يدخلوا القناة ، ثم كرر كلمة يستحيل ، فلما وصلت البوارج الانجليزية الى بور سعيد استأنف ديليسبس خداعه فأرسل الى عرابى برقية أخرى يقول فيها « لا تعمل عملا ما لسد قناتى ، فانى هنا ، ولا تخش شيئا من هذا ، اذ لا ينزل جندى بريطانى واحد الا ويصحبه جندى فرنسى ، وأنا المسئول عن الاسماعيلية ومن ثم الى التل الكبير على النحو المعروف لنا جميعا »

هذا هو ملخص وجيز للتاريخ الذى سطرته شركة القناة فى حياة مصر السياسية منذ صدر بها الفرمان المصرى فى سنة ١٨٥٤ المعدل بعد ذلك بعامين ، والواقع أنها كانت نوعا صارخا آخر من الاحتلال الاجنبى ، وسبيلا الى استنزاف حقوق مصر الاقتصادية لمرفق من مرافقها يقوم على استغلال قطعة من أرضها هى القناة ، ولهذا لم تقل حماسة المصريين لتأميم هذه الشركة عن حماستهم يوم طرد فاروق وعن حماستهم يوم تم الجلاء .

أما هذا الدرس الذى ألقيناه على الدول المستعمرة بتأميم شركة القناة، فلست أشك فى أن هذه الدول ستعيه ولن تنساه الى مدى بعيد ، لانها لم تكن تتصور أبدا ان مصر ستفكر فى استرداد هذا المرفق من هذه الشركة العاتية ربيبة الاستعمار البريطانى والاستغلال الفرنسى بمصر ، ولأن استرداد القناة وتأميم الشركة كانا عملا موفقا الى أبعد حدود التوفيق .

obeikandl.com

هؤلاء هم الذين شقوا القناة
السخرة والسياط ... ثم الجوع والظما والموت

obeikandl.com

هكذا سقت القناة

ستون الفا من هؤلاء كل شهر